دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و ثانوي

I- الخصائص الفنية المميّزة لفن السّيرة الذاتية:

1. نثر قصصيّ:

- إنّ دارس "شارع الأميرات" سريعا ما يكتشف أنّ هذا المُؤلّفَ ليس إلاّ **نثرا يروي قصّة تتعلّق بطور من أطوار حياة جبرا إبراهيم جبرا** يحدّده المُؤلّفُ نفسُه بأنّه لا يتجاوز السّنتين إذ يقول في نهاية الكتاب:"ما تحدّثتُ عنه هنا ليس إلاّ السّنة العجائبيّة 1951 والسّنة الّتي تلتها ومائلتها: سنتان فقط تحدّثت عنهما هنا". بيد أنّ هذا التّحديد الزّمنيّ الّذي يستغرق سيرته الذاتيّة بسنتين فحسب لا يَعْدمُ وجود إشارات إلى أزمنة أخرى ذات صلةٍ وثيقةٍ بحياة الكاتب بعضها من ماضيه وبعضها الأخر ممّا سيتلو هاتين السّنتين.

- من **ملامح هذه القصّة** الّتي تتعلق بطور من أطوار حياة جبرا والّتي دوّنها في "شارع الأميرات":

* **في مستوى السّرد:** تنوّع الأحداث (سفره إلى بريطانيا والعراق، تعرّفه لميعة...) + الأزمنة (بعضها يتّصل بحياته الخاصّة وبعضها الآخر يرتبط بالظّرف التّاريخيّ العامّ) + الأمكنة (مدينة يافا الفلسطينية – أوكسترا البريطانيّة – بغداد العراقيّة) + الشّخصيّات (لميعة – أصدقاؤه – زملاؤه...).

* **في مستوى الحوار:** يتخلّل الحوارُ السّردَ ويحضر إمّا من ذلك الحوار الّذي جرى بينه وبين أصدقائه حول "أغاثا كريستي"، أو ذاك الّذي دار بينه وبين القاضي في موكب زفافه.

* **في مستوى الوصف:** يحضر الوصف باقتضاب مثل وصفه شارع الأميرات ("معظم رصيفه مظلّل بأشجار اليوكالبوتوس الوارقة وقد علت وكبرت مع الزّمن وما زالت بخضرتها الدّائمة على مرّ الفصول تعطي الشّارع مهابة ونضارة هو أهلٌ لَهُمَا") + وصفه لميعة ("امرأة واسعة العينين السّوداوين، مع عقصتين من شعرها القصير تعبثان على جبينها، منحوتة الشّفتين المرجانيّتين وأسنانها تعطي ضحكتها وهج اللآلئ").

⇐ ارتبط الوصف في الغالب بالعناصر الّتي كانت تثير إعجاب الكاتب وكان يتعلّق بها تعلّقا شديدا، لذلك اتّسم بالذاتيّة وعبّر عن رفعة ذوقه وتعلّقه بالجمال أنّى وُجد كاشفا تأثّره بكلّ ما هو جميل ("ويوم ذهبت إلى حدائق "التّويليري" لزيارة متحف "الأورانجري" حيث تحفظ لوحات الانطباعيين وما بعد الانطباعيين، أيّ فرح عارم هزّني حتّى النّخاع! وكما هو شأني كلّما فاجأني الجمال، شهقت وفاضت عيناي وأنا أحاول يائسا كبح الدّموع لئلا يراني الزّوّار ويعجبون لبكائي").

1/15

2. الأحداث المتعلّقة بحياة الكاتب.

- مدار "شارع الأميرات" وقائع تتّصل بحياة جبرا إبراهيم جبرا بعضها يَذكُرُهُ بوضوح ("وبقيت مشدودا إلى ما رسمت من شبه دقيق مدفوعا بقوّة الذاكرة")، لذلك كان حديثه عنها دقيقا مفصّلا [ذكريات تتصل بلميعة وزياراته متاحف باريس]،+ بعضها الآخر يَذكُرُهُ بدون تفصيل مثل أحداث الحرب العالميّة الثّانية، + صنف ثالث يسكت عنه مخيّبا انتظار القارئ على نحو علاقته بأفراد عائلته بفلسطين وأحداث النّكبة.

⇐ ذاكرة الكاتب مُسَيَّجَة بما كان له تأثيرٌ في مسيرته عميقٌ وبما يَدْعَمُ المسار الملحميّ الحافل بإنجازاته.

- يركّز جبرا على وقائع سنتي 1951 و1952 وفق سرد خطّيّ قوامه توافق بين زمن السّرد وزمن الحكاية. غير أنّنا لا نعدم سردا استرجاعيّا [يسترجع مثلا أطوارا من الحرب العالميّة الثّانية وأخرى من زمن دراسته في فلسطين وانقلترا ("نشأتي المشّائية هذه أسعفتني كثيرا يوم دخلت الكلّية العربيّة في خريف عام 1935" / "وفي ربيع عام 1936 انقطعنا عن الدّراسة في مدارس فلسطين كلّها")] + سردا استباقيّا يصل مداه إلى أواسط الثّمانينات ("ثمّ جاء زمن في أواسط الثّمانينات حين بدأت أخذ حفيدي ديما للتّمشّي معي في "شارع الأميرات") بل حرب الخليج سنة 1991...

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و
ثانوي

3. مطابقة بين المؤلّف والرّاوي.

- تدلّ عليها إشارة الكاتب على ظهر الغلاف أو في مقدّمة كتابه بأنّه يكتب سيرته وهذا شرط أساسيّ حدّده "فيليب لوجون" في ميثاقه التّرجذاتي. يقول جبرا:"استحضرت من ذاكرتي أحداثا أروي تفاصيلها كحكايات من حياتي... فتكون في النّهاية نوعا من السّيرة الذاتيّة".

- هذه المطابقة بين المؤلّف والرّاوي يمكن أن نتأكّد من صحّتها بمجرّد أن نقارن بين ما يذكره السّارد وما نعرفه عن الكاتب فنحن نعرف مثلا أنّ جبرا من أصل فلسطينيّ درس في بلاده ثمّ ارتحل إلى انقلترا فالعراق وأنّ زوجته اسمها لميعة وهي المعلومات ذاتها الّتي يذكرها الرّاوي عن نفسه.

4. مطابقة تامّة بين الرّاوي والبطل.

- تتجلّى هذه المطابقة في استعمال الرّاوي ضمير المتكلّم "أنا" ليتحدّث عن بطله فَيَتَمَاهَى الطّرفان بذلك ونعلم أنّ المتحدَّثَ والمتحدِّثَ عنه شخص واحد ("فكّرتُ"../ و"كنتُ" / و"كانَ لي"...).

- يبدو الرّاوي عليما بالبطل ما خفي من سيرته وما ظهر، فهو سارد عليم بالظّاهر والباطن وفق رؤية تتراوح بين أمامية (لا يعرف إلاّ المعطيات الخارجيّة كسنة للولادة والأماكن الّتي يتنقّل فيها البطل) وخلفيّة (الرّاوي ملمّ بما

يعتمل داخل نفسيّة البطل من مشاعر وما يجول بخاطره من أفكار وطموحات). إنّه راو يعلم كلّ ما يُعتِلنُهُ بطله وما يُبطِنُهُ وكلّ ما أنجزه ماضيا وحاضرا وما سينجزه مستقبلا.

استنتاج:

يمكن اعتبار "شارع الأميرات" نموذجا للسّيرة الذاتيّة إذ استوفى صاحبها لمقوّمات التي نظّر لها "فيليب لوجون" في ميثاقه السّير ذاتي.

⇐ هكذا بدا جبرا منشغلا بذاته يقتفي أثرها وقد ساعده جنس السّيرة الذاتيّة على الوصول إلى غايته. فهل يعني هذا التّركيز على الذات أنّه قد استوفى كلّ ما يتعلّق بها؟ وهل يمكن الجزم بأنّه استبعد كلّ ما ينأى عنها؟

II- الخصائص المضمونية: التجربة الذاتية والمعاني الموضوعية:

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و
ثانوي

1. التجربة الذاتية، مظاهر الانشغال بالذات:

أ- اعتبار الذاكرة أداة استحضار الماضي:

- يعتمد جبرا إبراهيم جبرا على ذاكرته الذاتيّة فيعتبرها مصدر المعرفة منها تتولّد الذكريات وتتواشج فتنتج نصوصا هي من صميم سيرته الذاتيّة ("ولذا استحضرت من ذاكرتي أحداثًا أروي تفاصيلها كحكايات من حياتي"). هكذا يوهمنا بقدرته على استنطاق الذاكرة فيكثر من استعمال الجذر (ذ – ك – ر) في حالة الإثبات ("اذكر هذه الحديقة..." / "تذكّرت كم من مراحل مهمّة في حياتي..." / "وبقيت مشدودا إلى مارسمت من شبه دقيق مدفوعا بقوّة الذاكرة..") أو الجذر (ن – س – ي) في حالة النّفي ("ولن أنسى وأنا غارق في أفكاري المسائيّة" / "أمّا أنا فلم أنسَ أحدا...").
- جبرا يتعلّق بذاكرته رغم أنّه يعترف أحيانا بأنّها لا تسعفه بتذكّر الماضي بوضوح ("ولست أذكر إن كنت أعطيتها القصيدة، والأرجح أنّي عقلت واتّخذت الحذرَ فلم أطلعها عليها إلا بشكل موارب..").
- في خضمّ ذلك كلّه يحاول جبرا أن يوهمنا بصدقه في استحضار ذكريات الماضي المتعلّقة بالشّخصيّات والأمكنة والأزمنة والأشياء التي شكّلت عالمه القديم؛ ففي مستوى الشّخصيّات مثلا يذكر جبرا أسماء حقيقيّة اتّصلت بحياته وأقام معها علاقات مختلفة على تفاوت الصّلة التي جمعته بها فيحدّثنا مثلا عن أصدقائه (علي كمال) وأساتذته (أحمد / سامح الخالدي) وحبيباته: (غلاديس نيوبي (طالبة انقليزية / برناديت / لميعة).

- يبدو أنّ جبرا واع بحدود الصّدق فيما يرويه إذ نلاحظ أنّه يعتمد على مبدإ الانتقاء فهو لا يُثْبِتُ في سيرته إلاّ ما يرضى عنه ولا يَخْدِشُ كبرياءه واعتزازه بذاته وإن أوهمنا في بعض المَوَاطِن بأنّه لا يخجل من أن يذكر ما قد يخجل منه غيره كعلاقته بتلميذته مثلا.

ب- الذات محور التذكّر: لا يستحضر جبرا في سيرته الذاتيّة إلاّ ما اتّصل بذاته أو ما كانت له علاقة وثيقة بها وهذا من أهمّ ما يميّز السّيرة الذاتيّة عن غيرها من أجناس الكتابة كاليوميّات مثلا. إنّه بذلك يعلن أنّه لن يتحدّث عن غير حياته ("ولذا استحضرت من ذاكرتي أحداثا أروي تفاصيلها كحكايات من حياتي").

ج- الذات الباحثة عن المتعة: في استحضار الماضي استمتاع وراحة نفسيّة فكلّ ماض جميل بِخَيْرِهِ وشَرِّهِ سواء كانت الذاتُ المتذكّرةُ متأزّمة في حاضرها (فيكون الماضي مصدر عزائها وموطن هروبها من بؤس الحاضر) أو مرتاحة البال (فيكون الماضي تفسيرا لما تعرفه الذات من نجاحات في الحاضر أو شاهدا على قدرة الذات على تجاوز الصّعوبات الّتي حفل بها ماضيه).

د- تمجيد الذات: لقد كان جبرا مسكونا بهاجس تمجيد الذات فراح يبحث عن كلّ ما يرفع من شأنها وينتقي من ماضيه كلّ عنصر مُمَجِّدٍ إيّاها:

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و
ثانوي

❖ **تمجيد سلوكه:**

* **نفسيّا:** قدّم جبرا في سيرته ذاتا تعيش توازنا نفسيّا فهي لا تعاني من الحرمان وإن كان محيطا بها (ينتمي إلى عائلة فقيرة / عايش النّكبة الفلسطينية سنة 1948 / عدم توفّر إمكانيّات مواصلة التعلّم في بلاده) وهي لا تتبرّم ولا تشتكي وإنّما هي منسجمة تمام الانسجام مع ما توفّر لها من ظروف معيشيّة إذ تأقلمت مع صعوبات الواقع حتّى بلغت أهدافها المنشودة ⇐ جبرا يمجّد ذاته الّتي نجحت في التّحدّي ولم تسقط في فخّ الشّكوى الّتي تُعيقُ اندفاعه فضلا عن أنّها علامة ضعف وانكسار وليست من شِيَم الأبطال.

* **اجتماعيّا:** يرسم جبرا صورة ذات تنسجم باستمرار وبسهولة مع المحيطين بها أينما حلّت، فهو في زمن طفولته بفلسطين يصادق "علي كمال"، وفي انقلترا يقيم علاقات متينة مع الطّلبة والطّالبات. وفي العراق وجد الاحترام من الطّلبة والأساتذة وشخصيّات مهمّة ("عبد الحميد رفعت" مستشار شركة بترولية / "ماكس مالوان" باحث في الآثار). إنّه بذلك يثبت قدرة الذات على أن تنجح علاقاتُها الاجتماعيّة رغم تعدّد الأمكنة والثّقافات الّتي ينتسب إليها أصدقاؤه.

❖ **تمجيد قدرته على إقامة علاقات عاطفيّة ناجحة:** يحفل "شارع الأميرات" باستحضار علاقات عاطفيّة كثيرة أقامها جبرا مع نساء كثيرات أهمّهنّ الانقليزيتان "برناديت" و"غلاديس نيوبي" والعراقية "لميعة".

4/15

- يبدو أنّ جبرا واع بحدود الصّدق فيما يرويه إذ نلاحظ أنّه يعتمد على مبدإ الانتقاء فهو لا يُثْبِتُ في سيرته إلاّ ما يرضى عنه ولا يَخْدِشُ كبرياءه واعتزازه بذاته وإن أوهمنا في بعض المَوَاطِن بأنّه لا يخجل من أن يذكر ما قد يخجل منه غيره كعلاقته بتلميذته مثلا.

ب- **الذات محور التذكّر:** لا يستحضر جبرا في سيرته الذاتيّة إلاّ ما اتّصل بذاته أو ما كانت له علاقة وثيقة بها وهذا من أهمّ ما يميّز السّيرة الذاتيّة عن غيرها من أجناس الكتابة كاليوميّات مثلا. إنّه بذلك يعلن أنّه لن يتحدّث عن غير حياته ("ولذا استحضرت من ذاكرتي أحداثا أروي تفاصيلها كحكايات من حياتي").

ج- **الذات الباحثة عن المتعة:** في استحضار الماضي استمتاع وراحة نفسيّة فكلّ ماض جميل بِخَيْرِهِ وشَرِّهِ سواء كانت الذاتُ المتذكّرةُ متأزّمة في حاضرها (فيكون الماضي مصدر عزائها وموطن هروبها من بؤس الحاضر) أو مرتاحة البال (فيكون الماضي تفسيرا لما تعرفه الذات من نجاحات في الحاضر أو شاهدا على قدرة الذات على تجاوز الصّعوبات الّتي حفل بها ماضيه).

د- **تمجيد الذات:** لقد كان جبرا مسكونا بهاجس تمجيد الذات فراح يبحث عن كلّ ما يرفع من شأنها وينتقي من ماضيه كلّ عنصر مُمَجِّدٍ إيّاها:

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و ثانوي

❖ **تمجيد سلوكه:**

* **نفسيّا:** قدّم جبرا في سيرته ذاتا تعيش توازنا نفسيّا فهي لا تعاني من الحرمان وإن كان محيطا بها (ينتمي إلى عائلة فقيرة / عايش النّكبة الفلسطينية سنة 1948 / عدم توفّر إمكانيّات مواصلة التعلّم في بلاده) وهي لا تتبرّم ولا تشتكي وإنّما هي منسجمة تمام الانسجام مع ما توفّر لها من ظروف معيشيّة إذ تأقلمت مع صعوبات الواقع حتّى بلغت أهدافها المنشودة ⇐ جبرا يمجّد ذاته الّتي نجحت في التّحدّي ولم تسقط في فخّ الشّكوى الّتي تُعيقُ اندفاعه فضلا عن أنّها علامة ضعف وانكسار وليست من شِيَم الأبطال.

* **اجتماعيّا:** يرسم جبرا صورة ذات تنسجم باستمرار وبسهولة مع المحيطين بها أينما حلّت، فهو في زمن طفولته بفلسطين يصادق "علي كمال"، وفي انقلترا يقيم علاقات متينة مع الطّلبة والطّالبات. وفي العراق وجد الاحترام من الطّلبة والأساتذة وشخصيّات مهمّة ("عبد الحميد رفعت" مستثمر شركة بترولية / "ماكس مالوان" باحث في الآثار). إنّه بذلك يثبت قدرة الذات على أن تنجح علاقاتُها الاجتماعيّة رغم تعدّد الأمكنة والثّقافات الّتي ينتسب إليها أصدقاؤه.

❖ **تمجيد قدرته على إقامة علاقات عاطفيّة ناجحة:** يحفل "شارع الأميرات" باستحضار علاقات عاطفيّة كثيرة أقامها جبرا مع نساء كثيرات أهمّهنّ الانقليزيتان "برناديت" و"غلاديس نيوبي" والعراقية "لميعة".

5/15

← يرسم جبرا قدرته الخارقة على الإيقاع بالفتيات الفاتنات فضلا عن أنّه يكاد لا يخرج من تجربة حتّى يكون قد أقام علاقة جديدة ("ولكن كان لا بدّ لي بعد مرور بضع سنوات من كتابة السّيول والعنقاء للتّدليل على خروج امرأة رائعة من حياتي ودخول امرأة رائعة أخرى").

← ما يلاحظ أنّ هذه العلاقات عرفت نجاحا مطلقا خاليا من كلّ انتكاس فعلاقته العاطفيّة سواء مع "برناديت" أو "نيُوبي" انتهت في هدوء رغم عنفها وعمقها دون أن تخلّف ألما أو يأسا ولم يبق منها إلاّ الذكرى الممتعة:"وكان لي في أكسترا أن أعرف الحب من جديد بعد تجربة عرفتها في القدس بقيت، رغم لذائذها ولياليها المؤرّقة، في نطاق الهوى العذري. أما هذه المرّة فكان الحبّ عاصفا كالرّيح وجارفا كالسّيل".

أمّا علاقته بلميعة العراقيّة فقد انتهت بزواج يُخلّد ذكرى عاشقين يُذكّراننا بالعشّاق المشهورين في التّاريخ إذ ينقل ما حدث للقاضي الّذي أبرم عقد زواجه بلميعة ("لقد رأى بعينيه ذلك الصّباح ما لا يراه كلّ يوم.. زواج عاشقين"). بل هو يصرّح بأنّه خلق حدثا نادرا بزواجه ("لقد كان زواجنا زواج رجل وامرأة اختار كلاهما الآخر... ولم أعرف قطّ حتّى ذلك اليوم زواجا كزواجنا يتحقّق بمشيئتنا نحن فقط لا بمشيئة أيّ إنسان آخر...") فضلا عن ذلك ذكر جبرا أنّ لميعة تحدّت في البداية أهلها الّذين عارضوا زواجها به لانتمائها إلى عائلة مرموقة.

- **تمجيد قدرته على فرض نفسه:** لقد خطّ جبرا سيرة ذات انطلقت ضعيفة وانتهت قويّة بفضل ما توفّر لها من قدرات خارقة على أن تفرض حضورها القويّ، فرغم قيود الاستعمار والفقر في القدس تمكّن من أن يحظى بفرصة نادرة لمواصلة تعلّمه بانقلترا ("رتّبت دائرة المعارف السّفر إلى انقلترا لي ولإثنين آخرين من الطّلاّب"). ورغم صعوبة مهمّته في انقلترا لأنّه يدرس مع طلبة انقليز من المفترض أن يكون لهم تكوين أعمق فضلا عن أنّهم لم يغادروا وطنهم فإنّه استطاع أن ينجح دراسيّا واجتماعيّا. وفي بغداد فرض نفسه رغم عسر تجديد عقد العمل، وتمكّن من أن ينخرط في صلب المجتمع العراقيّ خاصّة بعد زواجه بفضل ما أظهره من قدرات فائقة. ← يقدّم جبرا صورة بطل ملحميّ مبهر إذ الفوز حليفه دائما.

- **تمجيد نجاحه العلميّ:** جبرا في "شارع الأميرات" هو نموذج الطّالب المتفوّق الّذي ينجح بامتياز في كلّ الامتحانات طوال مسيرة حياته. يذكر سبب نيله شرف مواصلة دراسته في انقلترا رفقة "حلمي سمارة" و"حامد عطاري": "وكلّنا أصلا من خرّيجيّ الكلّية العربيّة بالقدس، تلك المؤسّسة المدهشة الّتي كانت سلطات المعارف تجمّع فيها الفتية المتفوّقين في المدارس الحكوميّة في فلسطين كلّها". وفي انقلترا استطاع أن ينهي دراسته بعد أن تخصّص في الأدب الانقليزيّ ("كنت في جامعة اكسترا أتهيّأ لدخول جامعة "كمبريدج" في السّنة التّالية للتخصّص في الأدب الانقليزي"). وانتهى به الأمر بعد ذلك أستاذا مرموقا في الجامعة العراقيّة.

❖ **تمجيد ثقافته الموسوعيّة:**

* تمجيد ثقافته الأدبيّة: ولعه بالمعرفة مُنذ بدايته ("أعلّم في مدرسة ابتدائيّة كئيبة وأقضّي بقيّة وقتي في المطالعة والكتابة والتّرجمة") + إتقانه لغتين العربيّة والانقليزيّة + تخصّصه المعمّق في الأدب الانقليزي ("حتّى قال "جفري وولطن"، أحد أساتذتي، في توصية بي في نهاية السّنة الأكاديميّة: "إنّني واسع الاطّلاع جدًا" بالنّسبة لمن هم في سنّي وأدهشني بذلك القول لأنّني لم أكن أحسب أنّ المطالعة المستمرّة والمتنوّعة إلا بعضا من ضرورات الحياة اليوميّة") + مدرّس ناجح + مؤلّف مشهور.

Radhia chaibi

* تمجيد ثقافته المتنوّعة المشارب: رغم تخصّصه الأدبيّ أخبرنا جبرا بأنّ له اهتمامات متنوّعة أخرى منها شغفه بالموسيقى [إلى حدّ أنّه أنشأ ناديا موسيقيّا ("في أوائل الأيّام التّي أنشأت فيها للطّلاب جمعيّة للموسيقى الكلاسيكيّة"). وكان مرجعا يُعتدّ بآرائه في الموسيقى يُلْجَأ إليه لأخذ رأيه في الاسطوانات فضلا عن إتقانه العزف وتعطّشِهِ إلى الاستماع إلى كبار الموسيقيّين وحضور حفلاتهم ("ما أروع أن أذهب مرة أخرى بعد دهر بكامله إلى المسرح والأبرا والحفلات الموسيقيّة وأسمع"باخ" لا من اسطوانات مشروخة بل حيّا من آلات نابضة)] + ولعه بالرّسم [إذ هو يركّز في نقل وقائع رحلته إلى باريس على وصف متاحفها وما احتوته من لوحات رائعة انبهر بها إلى حدّ التّأثّر العميق ("ويوم ذهبت إلى حدائق "التويليري" لزيارة متحف "الأورانجري" حيث تُحفَظ لوحات الانطباعيين وما بعد الانطباعيين، أيّ فرح عارم هزّني حتّى النّخاع! وكما هو شأني كلّما فاجأني الجمال، شهقت وفاضت عيناي وأنا أحاول يائسا كبح الدّموع") بل هو يستعرض قدرته الرّهيبة على استنطاق اللّوحات: ("أمّا "فان غوخ" بأصباغه الكثيفة وكأنّها للتّو قد أسقطها ضربات على القماشة من فرشاة عريضة محمّلة بالأصفر والأزرق فقد كهربني")، وهو بعد هذا كلّه يخبرنا بأنّه مارس الرّسم عن عشق ("كنت أعود إلى غرفتي في "بولفار راسباي" منتشيا، ويداي ترتجفان تحرّقا للرّيشة وأرسم على الورق بالزّيت أو بقلم الرّصاص. وكنت منذ أوّل ذهابي إلى بغداد أرسم على الورق، وأحيانا على قطع من الخشب المعاكس مختارا حجما أقرب إلى الصّغَر لأنّني أعلم أنّ عليّ أن أتنقّل برسومي أينما ذهبت واللّوحات الكبيرة عسير عليّ نقلها.")].

❖ **تمجيد العقل:** في "شارع الأميرات" كثير من التّأمّلات التّي قد يكون من خلالها سَعَى إلى تمجيد عقله فهو يتأمّل مثلا حقيقة الموت فيقول:"ولكنّ الموت على كلّ كان سَيُقَاوَمُ بهذا الحبّ للحياة وبهذه الكثافة في التّفكير وهذه الحرارة في المشاعر". ويبرز قدراته في فهم وقائع التّاريخ إذ يقول مخاطبا "غلاديس نيوبي": "أتعرفين أنّ البحر المتوسّط عربيّ في معظمه وأنّ تركة اليونان والرّومان إنّما مازجت الحضارات العربيّة وروحها منذ أن وجدت فكانت هي التّي أعطت الدّيمومة لكلّ ما هو متميّز ورائع في هذا البحر".

هـ- تنزيه الذات عن ارتكاب الأخطاء:

يرسم جبرا في "شارع الأميرات" لنفسه مسيرة مشرقة خالية من كلّ عثرة منزّهة عن كلّ خطإ فهو لا يطلعنا إلاّ على نجاحاته ولا نعرف عنه غير قدرته على تجنّب المزالق. إنّه يكاد يوهمنا بأنّه إنسان مثاليّ معصوم من الخطإ فهو لا يجرح أحدًا ولا يخاصم شخصا وإن كان مُنافِسا له ولا يعترف بأنّه كذب يوما من أجل مصلحة يروم تحقيقها.

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و
ثانوي

استنتاجات:

1- الرّغبة في نحت النموذج: إنّ الانشغال بالذات يتحرّك في فلك رغبته في نحت النّموذج ممّا فرض عليه الاقتصار على مضمون محدّد ميزته الاحتفاء والتّمجيد والانتقاء وبموجب ذلك تصبح السّيرة الذاتيّة شاهدًا على نبوغ الكاتب وتفرّده والأمر الّذي يحمّله مسؤوليّة إطلاع الأخرين على هذه المسيرة المظفّرة حتّى تكون قدوة حسنة.

2- تغييب وجه الذات الثّاني: الواضح أنّ جبرا قد سعى إلى أن يرسم ذاته رسما ملحميّا إذ مجّدها تمجيدا ونزّهها تنزيها عن كلّ خطإ وركّز على مظاهر السّعادة الّتي عاشتها الذات في الماضي فكان حديثه حديث المحتفي بنفسه الرّاضي عنها كلّ الرّضا. لكن ألا يفتح حضور الذات على هذا النّحو مجالا للتّساؤل عن وجهها الثّاني؛ ألا يُمكن أن نتخيّل أنّ هذه الذات كغيرها من الذوات لم تصادفها العراقيل ولم ترتكب الأخطاء ولم تتصادم مع غيرها؟

← إنّ كلّ هذه التّساؤلات تجعل قارئ "شارع الأميرات" يكاد يجزم بأنّ جبرا قد سكت عن جوانب مهمّة تتعرّض لها كلّ ذات إذ لا يمكن أن تَخْلُوَ مسيرة كلّ فرد من عُقد نفسيّة وأخطاء سلوكيّة في إطار علاقته بالآخرين فضلا عن تضخّم العراقيل الّتي من شأنها أن تعيق النّجاح الّذي يسعى إليه خاصّة أنّ الظّروف الّتي أحاطت به تجعل ذاته مرشّحة للإعاقة فهو الّذي ينحدر من فلسطين المحتلّة من الانقليز ثمّ من الاسرائليين ومن عائلة فقيرة مع كلّ ما يعنيه الاحتلال والفقر من صعوبات وعُقد من المفروض أنّه قد تعرّض لها وألمته غير أنّه سكت عنها وكأنّه قد عاش منعزلاً عنها. وهو الّذي أيضا اختلط بجنسيّات أخرى كثيرة (انقليز – أمريكيين – فرنسيين – عراقيين) وثقافات متنوّعة المشارب والرّوافد (عربيّة إسلاميّة، أوربيّة غربيّة) من المحتّم أن يكون قد واجه صعوبات الاندماج مع أهل الحضارات الأجنبيّة في سلوكاتهم وعلاقاتهم وعمق التّصادم مع قيم ثقافته العربيّة الإسلاميّة ومبادئ الثّقافة الأوروبيّة الغربيّة.

⇐ إنّ هذا التّركيز على الجانب المُحْتَفي بالذات الّتي تنحت مسيرة ملحميّة والمُغَيِّب العراقيل والعقد الّتي تلمّ بها يفتح المجال للتّساؤل عن مدى صدق جبرا فيسرد سيرته الذاتيّة؛ أليس هذا التّغنّي بالذات دليلا على أنّ هذا الكاتب كان ينتقي من أحداث حياته فلا يورد في سيرته إلاّ ما يرضى عنه ويخدم الهدف الّذي من أجله خطّ كتابه؟

8/15

⇐ إنّ تغييب الصّراع الّذي من المفترض أن يكون جبرا قد خاضه أضعف البنية الدّراميّة في "شارع الأميرات" إذ الأحداث سارت وفق نسق أفقيّ هادئ خالٍ من كلّ نتوءات التّأزّم، فما ضرّ لو أنّ جبرا سعى إلى توظيف الصّعوبات والعراقيل الّتي واجهته في رسم عظمة الذات لأنّ الفرد حين يواجه ما يحفّ به من ظروف صعبة وينجح في مواجهتها تكون صورته في عين القارئ / المتقبّل أكثر إشراقا وأقرب إلى النّموذج الّذي يُحتَذى بهِ.

2. الجوانب الموضوعيّة، القيمة الوثائقيّة:

لئن مثّلت الذات مركز الحديث في "شارع الأميرات" فإنّنا لا نعدم حضور بعض الإشارات التّوثيقيّة الّتي تحيل على جوانب من الواقع السّياسيّ والاجتماعيّ والثّقافيّ في الفترة الزمنيّة الّتي تمسحها هذه السّيرة.

أ- توثيق سياسي:

إنّ دارس "شارع الأميرات" يظفر ببعض التّواريخ والأحداث الّتي يمكن اعتبارها توثيقا للفترة الزمنيّة الّتي يتحدّث عنها جبرا من ذلك:

* **إعلان الثّورة الفلسطينيّة الكبرى على الانتداب البريطاني عام 1936:** "وفي ربيع عام 1936 انقطعنا عن الدّراسة في مدارس فلسطين كلّها لسبب الاضطراب المشهور الّذي أعلن فيه الفلسطينيّون ثورتهم مجدّدا على الانتداب البريطاني ودام الاضطراب قرابة أحد عشر شهرا".

* **الحرب العالميّة الثّانية 1939:** "أعلنت انقلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا يوم 3 أيلول 1939 وبذلك بدأت الحرب العالميّة الثّانية وذلك بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى بإحدى وعشرين سنة فقط". وقد سعى جبرا إلى أن يفصّل القول قليلا في بعض الوقائع المتّصلة بهذه الحرب مثل عدم دخول اليابان وإيطاليا الحرب في البداية ("وقد اخترنا لسفرنا سفينة يابانيّة عن قصد لأنّ اليابان كانت ما تزال محايدة في الحرب – كما كانت إيطاليا لم تدخلها بعد – وللسّفن اليابانيّة أن تدخل أيّ ميناء تشاء"). وهو يذكر كذلك الطّور الأوّل من الحرب ("لم تكن الحرب قد اشتدّت بعد في الأشهر الأولى.. ثمّ قامت ألمانيا في شهر أيّار بهجومها الصّاعق على أقطار أوروبا مشهرة سياسة الحرب الخاطفة (البليتز كريغ...)".

* **النكبة الأولى في فلسطين عام 1948.**

* **قيام ثورة الضبّاط الأحرار في مصر سنة 1952.**

* **ثورة 14 تمّوز 1958 في العراق.**

* **العدوان الثّلاثي على العراق سنة 1991.**

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و
ثانوي

* **دور العراق القوميّ:** كانت العراق سندا مهمّا لقضايا الأمّة العربيّة وخاصّة الفلسطينيّين الّذين تولّد لديهم نتيجة لذلك ميلٌ إلى العراق عميقٌ ("وفي الفلسطينيين ميل قديم إلى العراق تزايد منذ أواسط الثّلاثينات لإيمانهم بالدور القومي الأساسيّ الّذي يلعبه العراق في حياة الأمّة العربيّة").

⇐ الملاحظ أنّ هذا التّوثيقَ السّياسيَّ يمسح فترة طويلة من التّاريخ العربيّ والعالميّ تمتدّ من الثّلاثينات إلى بداية التّسعينات رغم أنّ الزّمن الأصليّ لشارع الأميرات لا يتجاوز سنتي 1951/1952

Radhia chaibi دعم و تدارك مدرسي اعدادي و ثانوي

ب- توثيق اجتماعي:

يشمل هذا التّوثيق جوانب من الحياة الاجتماعيّة في:

* **فلسطين:** أشار جبرا إلى انتشار الفقر في فلسطين فضلا عن كثرة الأمراض مثل الرّمد الّذي أصيب به جبرا نفسه.

* **العراق:** يورد جبرا بعض ما يتعلّق بعادات الزّواج في العراق ("شاهدت عشرات الزّواجات والأعراس الّتي تملأ الدّنيا أصواتا وطربا بما فيها حفلات النّيشان والمهر والزفاف...") + يذكر جبرا أنّه كان يتبادل الزّيارات أحيانا مع بعض أصدقائه في العراق ممّا يدلّ على تمتّن الرّوابط الاجتماعيّة + يلمّح جبرا إلى تحرّر المرأة العراقيّة فـ"لميعة" وصديقتها "ساهرة" مثلا درستا في أمريكا واشتغلتا مُدرّستين في العراق ("كانت ساهرة قد عادت منذ أسابيع من أمريكا وهي إحدى مدرّسات الأدب الانقليزي في كلّيّة الملكة عالية") وكانتا تدخلان المقاهي رفقة الرّجال ("اقترحنا بصوت منخفض وبالانقليزيّة أن نذهب أنا وعدنان رؤوف ولميعة وساهرة للعشاء في فندق السّندباد دون الآخرين بالطّبع")، فضلا عن أنّ السّارد يذكر أنّ لميعة كانت تمارس هوايتها المفضّلة (لعبة التّنس) في أحد النّوادي / "غدا نفاجئها في النّادي الأولمبي فهو اليوم الذي تلعب فيه لميعة التنس هناك").

* **بريطانيا:** ركّز جبرا حديثه على انفتاح العلاقات بين الجنسين في بريطانيا خاصّة في أوساط الطّلبة. إذ أنّه لم يجد صعوبة في أن يقيم علاقة عاطفيّة متينة مع الفتاة البريطانيّة "غلاديس نيوبي" رغم اختلاف هويّتهما: "كان الحبّ عاصفا كالرّيح وجارفا كالسّيل، فضاؤه الحقول الخضراء والأشجار البواسق، يضجّ بالجسد كما يضجّ بالرّوح إذ كانت الرّوح هي مطلقة ذلك الكلام الجامح اللامنتهي".

ج- توثيق ثقافي:

* **في فلسطين:** رغم صعوبة الوضع السّياسيّ في فلسطين وانتشار الجهل فإنّ سلطات المعارف كانت تشجّع المتفوّقين على مواصلة دراستهم بالخارج:"رتبت دائرة المعارف السّفر لي ولإثنين آخرين من الطّلاب... وكلّنا أصلا من خرّيجي الكلّيّة العربيّة بالقدس، تلك المؤسّسة المدهشة الّتي كانت سلطات المعارف تجمّع فيها الفتية المتفوّقين في المدارس الحكوميّة في فلسطين كلّها ابتداء من سنّ الخامسة عشرة فيدرسون فيها سنتين أو ثلاثا على أساتذة قديريـن

بإشراف عميد من أبرز من أنجبت فلسطين من مفكّرين هو الأستاذ أحمد سامح الخالدي ليتخرّجوا معلّمين أو طلاّب بعثات إلى الجامعة الأمريكيّة ببيروت أو جامعات انقلترا إذ لم يكن في فلسطين كلّها يومئذ جامعة واحدة".

* في العراق:

- ازدهار الحياة الثّقافيّة في العراق رغم بعض المعوّقات إذ تُؤسَّسُ النّوادي الموسيقيّة ("في أوائل الأيّام الّتي أنشِئَتْ فيها للطّلاّب جمعيّة للموسيقى الكلاسيكيّة") وتُقَامُ الحفلاتُ المسرحيّة ("وفي شهر نيسان من ذلك العام 1949 أقيمت حفلة تمثيليّة باللّغة الإنكليزية في قاعة الملك فيصل الثّاني (قاعة الشّعب حاليّا) وفي مناسبات كذلك كنت ترى حولك معظم مثقّفي بغداد من عراقيّين وأجانب")، فضلا عن المناسبات الثّقافيّة كالمحاضرات والمعارض الّتي كانت تجمع النّخب المثقّفة ("وكان أساتذة الكلّيّات والخرّيجون الجامعيّون تجمعهم بأعداد كبيرة المناسبات الثّقافية كالمحاضرات العامّة أو المعارض الفنيّة... أو حفلات الموسيقى الّتي تقدّمها بوجه خاص الفرق الزّائرة").

⇐ يمكن اعتبار "شارع الأميرات" تأريخا لبعض ملامح الحداثة العربيّة في الفنّ والفكر بالعراق المعاصر.

- تعاقد وزارة المعارف العراقيّة مع نُخَبٍ فلسطينيّة من مدرّسين وغيرهم: وقد أشار جبرا إلى الأزمة الّتي طرأت على هذه العلاقة فكانت سببًا في فتورها:"لكن لاحظنا في تلك الأونة أنّ وزارة المعارف الّتي كانت مسؤولة أيضا عن التّعليم العالي فقدت الكثير من حماسها لمن تعاقدت معهم من الفلسطينيّين، ذلك الحماس الّذي أبدته بحرارة هائلة إثر النّكبة عام 1948".

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و
ثانوي

* في البلدان الغربيّة:

- في معرض حديثه عن اللّقاء الّذي جمعه صدفة بـ"أغاتا كريستي" كاتبة الرّوايات البوليسيّة المشهورة نعلم زمن صدور رواياتها:"جَعَلَتْ من بعض تجاربها في هذه الأسفار خلفيات بعدد من الجرائم" المثيرة في رواياتها الّتي كان يحلّ ألغازها بين حين وآخر البطلُ الّذي ابتدعته لأوّل مرّة عام 1920 المفتّش البلجيكي "هركيول بوارو" كما في "جريمة في قطار الشرق السّريع" (1934) و"موت على النّيل" (1937) وغيرهما".

- يخبرنا جبرا بزيارته متحف اللّوفر في باريس فنكتشف عظمة الثّقافة الّتي يضمّها هذا المكان "لما ذهبت إلى متحف اللّوفر أوّل مرّة ورحت أتجوّل في قاعاته طابقا بعد طابق أصبْتُ بدوار غريب لذيذ. كلّ ما درسته بجهدي عن الفنّ عن طريق الكتب بدءا بالحضارات الأولى حتّى أخر حركة في الرّسم والنّحت وجدته هنا مجسّدا في هذه الآلاف من اللّوحات الحقيقيّة والتّماثيل الّتي تغريني دوما بلمسها كأنّ فيها استجابة المعشوق".

11/15

- حين أقام بباريس أيضا اكتشف حيويّة ثقافيّة موسيقيّة ومسرحيّة نادرة:"ما أروع أن أذهب مرّة أخرى إلى المسرح والأوبرا والحفلات الموسيقيّة وأسمع "باخ" لا من اسطوانات مشروخة بل حيّا من آلات نابضة فأتابع الأيدي الرّهيفة وهي تصعد بالأقواس وتنزل بها على أوتار الكمنجات بتساوق الرّاقصات في البريلود والفيوغ".

- فرنسا أيضا هي مكان تزدهر فيه المطالعة ويُروّجُ فيه الكتاب: "أرى الكتب أكداسا على الرّفوف وملقاة على الأرصفة".

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و
ثانوي

د- توثيق اقتصادي:

- في شارع الأميرات إشارات إلى أهميّة شركات النّفط في الاقتصاد العراقيّ. لقد كانت هذه الشّركات تعتمد بالأساس على خبرات بريطانيّة مدعومة ببعض الكفاءات العراقيّة والعربية عموما: "التحق فرانك ستوكس بشركة نفط العراق الّتي أتت به إلى بغداد ليَتَبَحُّرَه بالعربية ليؤسس في الشّركة دائرة للعلاقات العامّة".

- هذه الشّركات النّفطية كان لها دور بارز في حياة العراق السّياسيّة والاقتصاديّة ("هذه الشّركة الكبيرة الّتي كنّا نعلم أنّها تلعب دورا بارزا في حياة العراق السّياسيّة والاقتصاديّة") + هذه الشّركات النفطيّة جعلت العراقيّين يحلمون بتحسّن ظروفهم المعيشيّة بفضل العائدات الماليّة الضّخمة الّتي سيجنونها ("كانت (هذه الشركة النّفطية الكبيرة) على وشك أن تنتهي إلى اتّفاقية مناصفة الأرباح لأوّل مرّة فيتاريخ العراق أو أي قطر آخر ينتج النفط في المنطقة، الأمر الّذي جعل النّاس رضوا أم لم يرضوا عن الاتّفاقية يتوقّعون تدفّق الملايين فجأة عليهم بعد ضيق طال أمده").

- النّفط مثّل عاملا مساعدا على النّهوض بالجانب المعماريّ في العراق ("ولكي تنفق تلك الأموال على نحو يؤدّي إلى النّهوض بالبلد، أنشئ مجلس الإعمار برئاسة رئيس وزراء سابق "أرشد العمري"، وراح المجلس يضع بمشورة خبراء عراقيين وأجانب خططا طموحة لتطوّر عمرانيّ كبير في بلد كان عدد سكّانه يومئذ لا يزيد عن خمسة ملايين نسمة".

هـ- توثيق الأعلام:

* **أفراد عائلته:** أمّه وإخوته "يوسف" و"عيسى" و"مراد" ("وجاءنا أخي مراد في الصّباح الباكر إذ سمع عن طريق الإذاعة نبأ التفجير ولمّا رآنا أنا وأمّي وأخي يوسف مع عروسه الجديدة وأخي عيسى حيّانا رغم كلّ ما جرى... راح يبكي..."). + زوجته لميعة + وَلداه.

12/15

* **أصدقاؤه:** "التأم جمعنا أنا وعدنان ومعنا ثلاثة أصدقاء أو أربعة آخرون أحدهم يدعى عدنان وهو قريب العهد بالمحاماة والآخر محمود الحوت الشّاعر الفلسطيني..." / "والغريب أنّ سنة 1951 تميّزت في حياتي أيضا بمجيء صديقي الدّكتور علي كمال إلى بغداد للعمل فيها أستاذا وطبيبا للأمراض النفسيّة"

دعم و تدارك مدرسي اعدادي و ثانوي
Radhia chaibi

خـاتـمـة:

- تداخل الذاتي والموضوعيّ ظاهرة بارزة في هذا العمل الإبداعي إذ العنوان "شارع الأميرات" يحيل على المكان (جانب موضوعي) والحال أنّ العمل في جوهره هو سيرة للذات (جانب ذاتيّ).
- انخراط الذات في الكتابة وفق أصول جنس السّيرة الذاتيّة دليل على تدخّل الموضوعي في الذاتيّ.
- الحقّ أنّ الجانب التّوثيقيّ لا يحضر إلاّ بكيفيّة تدعّم حضور الذات إذ هو ليس منعزلا عنها فهو حين يتحدّث مثلا عن انبهاره بالازدهار الثّقافي في فرنسا فإنّه يمجّد ذاته الميّالة إلى الفنّ وهو كذلك حين يذكر أنّه التقى شخصيّات عظيمة مثل "أغاتا كريستي" فإنّه يفتخر بمثل هذه العلاقات.

⇐ يتداخل الذاتي (الانشغال بالذات) والموضوعيّ (الجوانب التّوثيقيّة) وإن كانت الذات هي منطلق الحديث وغايته ولا معنى لأيّ موضوع لا يتّصل بها لأنّ المقام ليس إلاّ سيرة ذاتية.

- إذا كان مقصد القراءة تأريخيًا فحسب فإنّ الدّارس يمكن أن يظفر بعدّة معلومات تتّصل بالشّخصيّات والأحداث والتّواريخ سواء الفلسطينية أو العراقيّة أو العالميّة من شأنها أن تسهم في فهم حقيقة هذه الحقبة التّاريخيّة التي يتحدّث عنها كتاب "شارع الأميرات".
- لقد كانت ثقافة الكهل النّاضج عاملا مهمّا في تفسير ماضي الطّفولة والشّباب، لذلك بدا جبرا مدركا خصوصيّة كتابة السّيرة الذاتيّة التي لا يكون الحديث فيها بعيدا عن دائرة الذات، فذكر أشياء وسكت عن أخرى. وهو كذلك لا يخوض مثلا في أسباب الاستغناء عن الفلسطينيّين المنتدبين للتّدريس في العراق عام 1952 حتّى بعد مضيّ زمن على ذلك الحدث خوفا من إثارة الفتنة في زمن كتابة "شارع الأميرات" سنة 1994. إنّ الذاتيّ في هذه المسألة هو الاستغناء عنه مع فلسطينيّين آخرين، وأمّا الموضوعي فهو أنّ تفصيل الأسباب قد يوتّر العلاقة بين الفلسطينيين والعراقيّين في زمن حرب الخليج الأولى وما تلاها من تطوّرات.

⇐ كأنّ الجانب الموضوعيّ مسيّج بصورة الذات المنشودة واختياراتها المرسومة.

- بدا واضحا أنّ جبرا إبراهيم جبرا يحاول من خلال كتابة سيرته الذاتيّة في "شارع الأميرات" أن يُحوّل تجربته الفردية الملحميّة إلى تجربة إنسانية رائدة فهو يقدّم في كِتَابِهِ تجربة أصيلة يمكن التّعلّم منها.

- في كتاب جبرا ما يؤكّد أنّ سيرة هذا الأديب الفلسطينيّ هي جزء من سيرة شعب مشرّد يجوب الآفاق طلبا للعلم أو بحثا عن العمل أو نشدانا للاستقرار الاجتماعي. وهكذا يتساوق الفرديّ الخاصّ والجماعيّ المشترك فتغدو السّيرة الذاتية في الظاهر تاريخا شخصيّا وفي الباطن تاريخا جماعيّا. إنّ مبحث الهويّة الفردية في السّيرة الذاتية يقترن بمبحث الهويّة الجماعيّة.

- إذا كان "شارع الأميرات" محدودا بمساحته النّصيّة فإلى أيّ مدى يمكن أن نعتبر إبداع جبرا القصصيّ مواصلة في كشف جوانب أخرى من مسيرة ذاته؟

دعم و Radhia chaibi
تدارك مدرسي اعدادي و
ثانوي

الموضوع:

بقدْر ما بدا جَبْرًا إبراهيم جَبْرًا منشغلا بتصوير ذاته فإنّه كان يطلعنا على جوانب من عصره.

حلّل هذا القولَ مُستنِدًا إلى شواهدَ دقيقة من كتاب "شارع الأميرات".

نماذج مواضيع:

دعم و تدارك مدرسي اعدادي و ثانوي
Radhia chaibi

الموضوع الأوّل:

إنّ مبحث الهوية الفردية في السيرة الذاتية يقترن بمبحث الهوية الجماعية.

حلّل هذا القول مستندًا إلى شواهد دقيقة من كتاب "شارع الأميرات".

الموضوع الثّاني:

يساوق الفردي الخاصّ والجماعيّ المشترك، فتغدو السيرة الذاتيّة في الظاهر تاريخًا شخصيًّا وفي الباطن تأريخا جماعيا.

حلّل هذا القول معتمدًا شواهد دقيقة من كتاب "شارع الأميرات".

الموضوع الثّالث:

بدا جبرا إبراهيم جبرا أمينا في نقل تجربته الذاتية صادقا في الكشف عن ملامح واقعه.

حلّل هذا القول وناقشه مستندا إلى شواهد دقيقة من كتاب "شارع الأميرات".

الموضوع الرّابع:

لم يكن جبرا إبراهيم جبرا في "شارع الأميرات" منشغلا بغير ذاته وفق أصول كتابة السيرة الذاتية.

حلّل هذا القول وناقشه مستندًا إلى شواهد دقيقة.